أمُّ الكتاب وتَفصيلُها

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- الإسلام والايمان: منظومة القيم
- الدين والسلطة: قراءة معاصرة للحاكمية
- السنّة الرسولية والسنّة النبوية
- القصص القرآني: مدخل إلى القصص وقصة آدم (المجلد الأول)
- القصص القرآني: من نوح إلى يوسف (المجلد الثاني)
- الكتاب والقرآن: رؤية جديدة
- فقه المرأة: نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

محمد شحرور

أمُّ الكتاب وتَفصيلُها

قراءة معاصرة للحاكمية الإنسانية
تهافت الفقهاء والمعصومين

دار الساقي

© دار الساقي 2015
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-843-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:٧)

﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:٣٩)

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١)

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء:١٢)

قال أبو حنيفة:

"قولنا هذا رأي، وهو أحسن ما قدرنا عليه،

فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا."

ونحن نقول:

"لقد جئنا بقولٍ مغاير لقول أبي حنيفة وغيره بحكم تقدّم الزمن وتطور المعرفة وأدواتها وليس غروراً؛ ونأمل أن يأتي من بعدنا بأحسن من قولنا، لأن الاجتهادات الإنسانية تنسخ بعضها مع مرور الزمن وتلك سنّة الله في خلقه."

المحتويات

الإهداء ١٣

كلمة شكر ١٥

المقدمة ١٧

الفصل الأول: الإشكاليات الناتجة عن مفهوم المحكم والمتشابه في المنظومة التراثية ٢٧

تمهيد ٢٧

أولاً – مسألة الأحرف السبعة وعملية جمع التنزيل الحكيم في عهد عثمان بن عفان ٣٣

١– مسألة الأحرف السبعة ٣٣

٢– الغاية من جمع الناس على مصحف واحد في عهد عثمان بن عفان ٤١

ثانياً – علم المحكَم والمتشابَه في المنظومة التراثية ٥٠

١ – علوم القرآن في المنظومة التراثية ٥٠

٢ – مفهوم المحكم والمتشابه في المنظومة التراثية ٥٨

٣ – التأويل وعلاقته بالمحكم والمتشابه في المنظومة التراثية: ٧٢

الفصل الثاني: المنهج المعاصر لتفصيل التنزيل الحكيم ٨١

تمهيد ٨١

أولاً – دور التنزيل الحكيم في تطوير اللغة العربية ٨٣

١– وضع اللغة العربية قبل البعثة المحمدية ٨٤

٢ – مساهمة التنزيل الحكيم في تطوير اللغة العربية ٩٢
ثانياً – تفصيل الكتاب (التنزيل الحكيم) ١١٢
١ – التفصيل العلمي للكتاب (التنزيل الحكيم) ١١٣
٢ – آيات تفصيل الكتاب (مفاتيح فهم الكتاب) ١٣٧
٣ – سبب تسمية السورة المحكمة في التنزيل الحكيم ١٤٨
ثالثاً – التأويل والاجتهاد في القراءة المعاصرة ١٥٣
١ – التأويل ومجال ممارسته ١٥٤
٢ – الاجتهاد ومجال ممارسته ١٧١
الفصل الثالث: المحكم وتفصيله ١٧٧
تمهيد ١٧٧
١ – الآيات المحكمات (أم الكتاب) ١٧٨
٢ – تفصيل الآيات المحكمات ١٩٠
أولاً – آيات تفصيل طاعة الله والرسول (طاعة متصلة) ٢٠٤
ثانياً – آيات تفصيل العبادة ٢٠٨
١ – آيات تفصيل العبادة والاستعانة بشكل عام ٢١٠
٢– آيات تفصيل العبادة والاستعانة: باتباع الصراط المستقيم ٢٣٥
٣– آيات تفصيل العبادة والاستعانة: في الصلاة كعلاقة مع الله ٢٣٨
ثالثاً – آيات تفصيل المحرمات ٢٥١
١– الشرك بالله ٢٥٦
٢– عقوق الوالدين ٢٨٤
٣– قتل الأولاد خشية الإملاق ٢٨٦
٤– الفواحش ٢٨٦
٥– قتل النفس ٢٩٣
٦ – أكل مال اليتيم ٢٩٥
٧– الغش بالمواصفات (الكيل والميزان) ٢٩٨
٨– شهادة الزور ٢٩٩

٩- نقض العهد ٣٠٣
١٠- الميتة والدم ولحم الخنزير... والاستقسام بالأزلام ٣٠٦
١١- الإثم والبغي بغير حق ٣١٠
١٢- التقوّل على الله ٣١٣
١٣- نكاح المحارم ٣١٨
١٤- الربا ٣٢٧
رابعاً - آيات تفصيل الأوامر والنواهي ٣٣٠
١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل عام ٣٣٤
٢- الأوامر المحددة ٣٣٥
٣- النواهي المحددة ٣٤٤
خامساً - آيات تفصيل التكاليف ٣٥٢
أ - الشعائر ٣٥٣
ب - التكاليف الأخرى: الوصية والجهاد والقتال ٣٨٦
الخاتمة ٤١١
المصادر والمراجع ٤٢٩
فهرس الآيات القرآنية ٤٣٣

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع

إلى نفس والدي المرحوم ديب شحرور الذي شجّعني منذ الصغر على العقل النقدي بحيث أوضح لي أنّ ما نسمعه في خطب الجمعة لا يستحق أن يرسل الله رسولاً من أجله،

وإلى نفس والدتي المرحومة صِدّيقة فليون التي كان لها الفضل في إتمام دراستي،

وإلى نفس المرحومة زوجي عزيزة الصّباغ التي تحمّلت أعباء انصرافي للبحث،

وإلى أولادي الأعزاء اللّيث وطارق وباسل وريما ومصون،

وإلى أحفادي الأعزاء،

وإلى كل عقل نقدي متنوّر يبحث عن الحقيقة أينما كانت.

كلمة شكر

لا يسعني إلاّ أن أقدم خالص شكري وامتناني لفريق العمل الذي كان له الدور الأساسي في مساعدتي على إعداد وإنجاز هذا الكتاب تحريراً وتنقيحاً. فكل شكري لكلٍّ من:

١ – الباحثة المهندسة رنا زكّار

٢ – الباحثة الأستاذة آسية وعيل

٣ – الباحثة إيمان سهل

مع جزيل الشكر إلى رفيق العمر السيد سلطان العوا.

المقدمة

تبيّن الحقيقة التاريخية التي لا يمكن لأحد إنكارها أنّ الأمة التي نسميها نحن أمة المؤمنين (أمة الملة المحمدية)، ويسميها غيرنا إسلامية، أمة نشأت مع نص التنزيل الحكيم وبه، إذ تلازم وجودها وارتبط بوجوده تاريخياً، حيث تفاعلت منذ نشأتها معه، وتجاذبت معه أحياناً بصورة إيجابية مكّنتها من أن تكون من أقوى الدول في العالم في حقبةٍ من الحقب، وأحياناً أخرى جاء تجاذبها معه سلبياً جداً جعلها تعيش في هامشية وارتباك على كل المستويات. وإن كان هذا الأمر يجعلنا نتأكد – شئنا أم أبينا – من مدى فاعلية نصوص التنزيل الحكيم وأثرها على حياة شعوب هذه الأمة جماعاتٍ وأفراداً، فإنه يدفعنا من باب المصداقية العلمية إلى القول بأن عملية تفاعلها مع نصوص التنزيل الحكيم، منذ بدايات نشوئها كأمة في القرون الأولى من تاريخها، انطلقت بالدرجة الأولى وفق سقفها المعرفي عند تعاطيها مع آياته فيما يتعلق بشؤونها الحياتية.

هنا يجب علينا أن نكون منصفين ونقول إن هذه الأمة، في بداياتها، كانت تتعامل مع نصوص التنزيل الحكيم ككائن حي يؤثّر ويتأثر، وما لنا إلا الرجوع إلى ما نسمّيه نحن مناسبات النزول ويسمّيه غيرنا أسباب النزول لبيان التفاعل المتبادل الذي كان حاصلاً بين نصوص التنزيل وأمة المؤمنين (الملة المحمدية)، لندرك حيويته التي كان يتمتع بها في تلك الفترة، كي نفهم بعدها كيف كان الوحي يتمتّع بهذه الروح المؤثرة والمتأثرة في آنٍ واحد لأنه كان يتفاعل مع معطيات العصر ومشاكل المجتمع ومتطلباته. وقد أدرك الجيلُ الأول هذه العلاقة الاستثنائية المشوقة بينهم كأفراد وكدولة وبين نصوص التنزيل الحكيم، وعرفوا أنه يمكنهم من خلال تنشيط هذه العلاقة أن يغيّروا واقعهم من جهة وأن يمنحوا هذه النصوص فرصة لمدّهم بمزيدٍ من الإبداع من جهة أخرى، لأنه كان مصدر

إلهام بالنسبة لهم. والشاهد على قولنا ما تمدّنا به كتب تأريخ التنزيل الحكيم (غيرنا يسميه قرآناً ونحن نفرّق بين القرآن والتنزيل الحكيم أي الكتاب) من أخبار، فتتبّع ما جاء فيها يبيّن لنا مدى العناية الكبيرة التي أولتها هذه الأمة للتنزيل الحكيم.

إنها حياة مشاركة كاملة المقاييس عاشها أفراد أمة المؤمنين (الملة المحمدية) مع نصوص التنزيل في القرون الأولى، وإن كنا نعيب عليهم المبالغة في ذلك ونرى أن الأسلوب الذي انتهجوه يتّسم بالخطأ، إلا أننا نثني على مجهوداتهم في تطوير مفهومية نصوصه وبلورة المعطيات المعرفية التي تنبثق عنها، على عكس من جاء بعدهم ممن حنّط نصوصه وجعلها ثابتة المفاهيم غير قابلة للتطور وأمر بالإبقاء عليها كما تركها الأولون بل وحارب كل محاولات تطويرها، رغم أن الأولين كانوا يرون غير ذلك والدليل محاكاتهم لنصوصه محاكاةً مفعمة بروح التطور.

نحن لا نعيب على القدماء بقدر ما نعيب على المتأخرين فعلتهم هذه، فهم أخذوا اجتهادات رجال غيرهم وحنّطوها في قالب جعلوه موضع تقديس مع أن القدماء أنفسهم لم يفعلوا ذلك بدليل تباين آرائهم وتعددها في جلّ المواضيع المتعلقة بالتنزيل الحكيم بما فيها موضوع المحكم والمتشابه. فكيف يمكن لأمة تحدّت العالم كله يومها، لأنها اقتنعت بأن ما بين يديها هو الحق وما سواه باطل، أن تصرّ على الباطل بعد أن تدركه؟ إذا لم نتمكن من دراسة موروثنا بعين ناقدة وبصيرة ثاقبة، لن يكون في مقدورنا أن نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، بل سنبقى نقدّس معارف الأسلاف ونجترّها رغم أن الزمان والمستوى المعرفي الإنساني قد تجاوزاها.

تلك هي الحقيقة التي لا ننفكّ نصرّ عليها لقناعتنا الراسخة بأنها السبيل الوحيد لخروجنا من دائرة التهميش ومشاركتنا في الحياة الإنسانية على كل المستويات. هذا التهميش الذي يرجع سببه بالدرجة الأولى لخوفنا من تجاوز فكر السلف وما يحمل معه من خوف في فقدان الهوية في حالة ما إذا قمنا بنقده وطرح بديل عنه، لأننا ورثنا ثقافة مؤسسة على مبدأ "السلف أعلم" فأصبحوا هم الذين يمثلون كينونتنا ولا نشعر بهويتنا إلاّ بالانتساب إليهم فكرياً ومعرفياً ودينياً، ففقدنا القدرة على سيرورتنا التي أصبحت متطابقة مع كينونتنا بحيث نتج عن ذلك أنه لم تعد لنا هنالك أي غايات نتطلع للوصول إليها لأننا مجتمعات ساكنة فكرياً، لأن بُعد الصيرورة عندنا مفقود تماماً. وفقدنا معه

الغائية في الحياة الدنيا، وأصبحنا مجتمعات ضعيفة ذليلة تعيش على أمجاد الماضي وتظن أنها تستطيع أن تستردّ مجدها الضائع بتطبيق فقه القرن السابع الميلادي ناسيةً تماماً أن الزمن يسير إلى الأمام وما كان يصلح يومها لم يعد صالحاً الآن مع كل التطور المعرفي الذي تشهده الدول التي تعيش بأبعادها الثلاثة دون عقد (الكينونة والسيرورة والصيرورة). فنحن نرى بوضوح فقدان البعد الثقافي الإنساني المعاصر في طروحات المنظومة التراثية الذي يتجلّى بشكل واضح في وجود عِداءٍ بين الفقه الإسلامي والقانون المدني، مما جعل كل العلوم الإنسانية سواء: علوم النفس والإحصاء والاجتماع والاقتصاد لا تعني شيئاً عند السادة الفقهاء الذين انعدم عندهم مفهوم الصيرورة لأنهم يحاولون لاهثين الحفاظ على كينونة وسيرورة، بعد أن أوقفوا التاريخ وصيرورته عند لحظة معينة هي القرون الثلاثة الأولى للبعثة المحمدية، التي جعلوها أساساً يقيسون عليه كل ما بعدها، فغدت الثقافة العربية الإسلامية هشة ضعيفة يستحيل صمودها أمام ثقافات الدول الأخرى المتطورة إلا بممارسة العنف من خلال قطع الرؤوس والرجم والجلد لإثبات وجودها.

على هذا الأساس نصرّ دائماً على القول بأنه يجب أن تكون لدينا صيرورة نسعى للوصول إليها وتحمل غاية نبيلة في ذاتها تمكّننا من الارتقاء من الوضع السكوني البليد الذي نعيشه إلى وضع مفعم بالحراك في مجتمعاتنا على كل المستويات: سياسي، ديني، فكري، ثقافي، اجتماعي، اقتصادي... عسانا نتمكّن من خلاله من الانتقال من دولة الراعي والرعية إلى دولة القانون ذات السيادة السياسية والمعرفية بحيث يعيش كل فرد فيها مواطنته بكل حرية وعدالة. وهذا لا يمكنه أن يتحقق إلا إذا ألغينا الوصاية الدينية والمعرفية التي فُرضت علينا وفككنا قيودها التي تطوق عقولنا وتمنعنا من التفكير، مع الثقة في عقولنا وتعاملنا مع نصوص التنزيل الحكيم على أساس التحاكي المباشر مع روحها المستوعبة لكل المستويات المعرفية، للوصول إلى مفاهيم متطورة تمكننا من حلّ الإشكاليات التي نتخبّط فيها.

إن التنزيل الحكيم يحمل صفة الحياة وهذا يعني أنه مقدّس ولا قدسية لغيره البتّة، فهو كينونة في ذاته لكنه سيرورة وصيرورة لنا، فما يُرى وما لا يُرى، وما يُفهم وما لا يُفهم في نصوصه، تحدده الإشكالية التي يكون الإنسان بصدد حلها حسب النظام المعرفي (المستوى المعرفي) الذي يتبعه لحلّ هذه الإشكالية. إذ حين يقف الإنسان في نقطة

معينة من التاريخ، منطلقاً من نظام معرفي معين، حاملاً إشكاليات اجتماعية ومعرفية معينة، سيفهم من التنزيل ذي النص اللغوي أموراً معينة وفق مستوى وعيه، لكن غيره قد يفهم غير ما يفهمه هو لتغيّر إحداثياته الموضوعية ومنطلقاته التي يقرأ من خلالها نصوص التنزيل الحكيم. من هنا فإنه عندما يتعاطى كل جيل من الأجيال مع نصوصه تعاطياً مباشراً دون وساطة الموروث الديني فتلك تسمى قراءة معاصرة لها. والحقيقة أن التنزيل الحكيم كان يحمل دائماً صفة القراءة المعاصرة حتى تمّ تحنيط موروث القرون الثلاثة وإقرار تطبيقه على كل ما جاء بعدها من القرون، فأصبح للتنزيل الحكيم قراءة تراثية أحادية ملزمة وراثياً.

بناءً على ذلك نحن نريد إعادة إصلاح هذا الخطأ المعرفي الفادح من خلال إصلاح قاطرة تاريخنا الفكري التي تعطّلت وتوقّفت في محطة القرن الثالث هجري، بحيث فقد التنزيل الحكيم، بسبب ذلك، صفة القراءة المعاصرة، وظل قطارنا المعرفي قابعاً في تلك الحقبة الزمنية دون حراك. علماً أن إصلاح قاطرته يحتاج إلى إعادة تطبيق القراءة المعاصرة على نصوص التنزيل الحكيم وإعادة بعث روحها الضائعة منها، باستخلاص مفاهيم متطورة منها تتمكن من حل إشكالياتنا ومشكلاتنا. وما قمنا به في كتابنا هذا وغيره من كتبنا هو ما ينطبق عليه تسمية "القراءة المعاصرة" لأننا وضعنا كل التراث جانباً وباشرنا العمل من الصفر انطلاقاً من قناعتنا بأن نصوص التنزيل الحكيم بحاجة إلى قراءة واعية ومتبصّرة.

وقد قمنا في هذا الكتاب بتطبيق قراءتنا المعاصرة على موضوع المحكم والمتشابه إيماناً منّا بأن آيات التنزيل الحكيم بحاجة إلى إعادة فرز بأسلوب منهجي دقيق غير متناقض، بحيث تتبّعنا المفاهيم التي تحملها هذه الآيات حول المصطلحين "المتشابه" و"المحكم" وما يرتبط بهما من مواضيع ذات علاقة كـ"التأويل" و"الاجتهاد". وتوصّلنا بفضل تطبيق منهجنا إلى مفاهيم تختلف تماماً عن تلك التي ورثناها عن المنظومة التراثية، إذ نتج عندنا تقسيم ثلاثي لآيات التنزيل الحكيم، بحيث وجدنا أن هناك قسم المتشابه وقسم المحكم وقسم اللامحكم – اللامتشابه، ويشمل آيات تفصيل المتشابه وآيات تفصيل المحكم وآيات تفصيل الكتاب. فأما آيات تفصيل الكتاب فهي المفاتيح التي لا يمكن أن يُفهم الكتاب إلا من خلالها لأننا مدركين تمام الإدراك أنّ مفاتيح فهمه بداخله